الفصل الثانى

الفُضَيل وأصْحَاب السُّلْطَان(*)

(*) مما يتصل بحياة الفضيل موقفه من أصحاب السلطان ، وكان من الممكن أن نجعله جزءًا من الفصل السابق ، ولكنَّا رأينا من الأوفق جعله فصلاً مستقلاً .

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (١).

ويقول سبحانه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٢).

الملوك والصوفية، النعيم المادى والنعيم الروحى، الترف المترف والزهد الزاهد، من ينظرون إلى الأرض ومن ينظرون إلى السماء، من يريدون العاجلة ومن يريدون الآخرة، حرث الدنيا وحرث الآخرة.

إنها أطراف تتعارض وتتصارع، وهى قائمة على مر الزمن لا تهدأ ولا تفتُر.. وإن فى المجتمعات ـ قديماً وحديثًا ـ مَنْ يسيرون وراء النزغات والغرائز، ومن يرتفعون بأنفسهم على النزغات والغرائز.

وإن لجهاد النفس ـ من أجل تزكيتها - مكانة كبرى فى الأجواء الدينية:

---

(١) سورة الإسراء: ١٨ - ٢٠.

(٢) سورة الشورى: ٢٠.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]..

والنفس الإنسانية ـ بطبعها ـ ميَّالة إلى فتنة الدنيا:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2]..

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[3]..

والصوفية يمثلون - أقوى وأطهر ما يكون التمثيل - التجرُّد إلى الله، وإرادة الآخرة..

إنهم قد تحقَّقوا بقوله تعالى:

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4]..

وطلبوا الباقيات الصالحات..

وهم يرون فى الناس تَطلُّعاً إلى الدنيا فى أيدى الملوك والأمراء وأصحاب السلطان، ويرون تهافت الناس عليهم، وذِلَّتهم فى سبيل شهواتهم، وأهوائهم، من جاه أو سلطان، أو مال أو منصب: يراؤون

---

(١) سورة الشمس : ٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) سورة الكهف : ٤٦ .

(٤) سورة الحديد : ٢٣ .

ويتزلَّفون، ويتملَّقون ويخضعون، ويكذبون وينافقون من أجل عَرَضٍ زائلٍ أو جَاهٍ يَفْنَى..

ويحاول الصوفية ـ فى كل زمن ـ أن يقودوا الناس إلى الله:

يقودوا أصحاب السلطان بالوعظ والنصيحة إلى الله.

ويقودوا الشعب بالوعظ والنصيحة، والقدوة الحسنة إلى إيثار الآخرة على العاجلة.

ولقد كان للفضيل رضي الله عنه فى هذا المجال أثر مشكور محمود.. ولقد كان الفضيل يتجه ـ بنصحه ـ إلى الملوك، وإلى العلماء، وإلى عامَّة الشعب..

لقد كان يقول لعامَّة الشعب:

«لَئِنْ يَدْنُو الرَّجُلُ مِنْ جِيفَةٍ مُنْتِنةٍ خَيْرٌ لهُ مِنْ أن يَدنُوَ إلَى هَؤلاءِ».

يعنى: أصحاب السلطان.

وكان يقول:

«رَجُلٌ لا يُخَالِطُ هَؤلاء ولا يَزيدُ علَى المكتُوبةِ أفْضَلُ عِنْدَنا مِنْ رجُلٍ يقومُ الليل، ويَصُومُ النَّهَارَ، ويَحُجُّ، ويَعْتَمِرُ، ويُجَاهِدُ فى سَبيلِ الله، ويُخَالِطهُم».

ويتجه إلى العلماء، فيبين لهم وضعهم الصحيح، قائلاً:

«لَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ زَهِدُوا فى الدُّنيا، لَخَضَعَتْ لَهُمْ رِقَابُ الجبَابِرَةِ،

وانقادت الناسُ لهم ، ولكنْ بَذلُوا علْمَهم لأبناءِ الدُّنيا ليصيبُوا بذلكَ مما فى أيديهم ، فَذَلُّوا وهانوا علَى الناس .. ومِنْ عَلامَةِ الزُّهَّاد : أنْ يَفرحُوا إذا وُصِفُوا بالجَهْلِ عندَ الأُمراءِ ومَنْ دَانَاهُمْ » ..

ولقد كان الفضيل يخالط سفيان بن عيينة العالم الشهير، فكان كلما التقى به يوجِّه إليه النصح.. ولقد جلس إليه سفيان بن عيينة يوماً، فقال له:

«كُنْتُمْ معاشرَ العُلماءِ سُرُجًا للبلادِ يُستضاءُ بكُم .. فَصِرتُمْ ظُلْمَةً .. وكُنتمْ نُجومًا يُهْتَدَى بِكُم ، فَصِرْتُم حيرةً .. أما يَستحى أحدكُمْ مِنَ الله إذا أتَى إلى هؤلاءِ الأمراء ، وأخذَ مِنْ مالِهم وهو لا يعلمُ مِنْ أينَ أخذُوه ؟ .. ثم يسندُ بعدَ ذلك ظَهْرَه إلى مِحْرابٍ ويقول : حدِّثنى فلانٌ عن فلان» .

فطأطأ سفيان رأسه ، وقال : « **نستغفرُ الله ، ونتوبُ إليه** » ...

وكان إذا اجتمع حوله العلماء يوماً، قال لهم:

«مَا لَكُمْ وللمُلوكِ ؟ .. ما أعْظَمَ مِنَّتَهُم عَليكُم .. قد تَركُوا لَكُمْ طَرِيقَ الآخرة ، فاركبُوا طريقَ الآخرة .. ولكنْ لا تَرْضَوْنَ ، تَبيعونَهم الدُّنيا ، ثُمَّ تُزَاحِمُونَهم عَليها.. ما يَنبغِى لعَالمٍ أنْ يَرضَى هذا لنفسه ».

ولقد كان للفضيل جولات مـع هارون الرشيد، ولقد كان لهارون الرشيد جولات مع الفضيل..

لقد كـان فى الرشيد سحـر الدنيا، وكان قلبه ـ مع ذلك ـ يتـفتَّح للعظة الخالصة خارجة من قلب مؤمن.

لقد كان يملك أسباب النعيم الحسِّى، فى إسراف مُسرف..وكان يتملَّكه أحـياناً ـ خوفُ الله، فيغـمره إحساس دينى عـميق، وتفيض عَبَراته.

ولقد كان بهذا الشعـور الدينى يُجِلُّ الذين أخلصوا وجوههم لله، ويتقبَّل نُصحهم، بل ويهابهم ويقدِّرهم.

روى النضر بن شميل قال: سمعت هارون الرشيد يقول:

«ما رأيتُ فى العلماءِ أَهْيَبَ مِنْ مالكٍ، ولا أَوْرَعَ مِنَ الفُضَيل».

ومن طرائف الفضيل مع الرشـيد أن قال له الرشيد يومًا، متـعجباً من زهده: مَا أَزْهَدَك ؟

فقال له الفضيل:

ـ **« أنتَ أَزْهَدُ منِّى »..**

قال: وكيف ذلك ؟

قال: **« لأنى أزهدُ فى الدنيا وهى فانـيةٌ، وأنت تزهدُ فى الآخرة مع أنها باقية ».**

وكان هارون يتقبَّل نُصحه عن طيب نفس، بل ويطلب منه النصح

كلما التقى به.. وما كان الفضيل يسعى إليه، وإنما كان هارون يطلب الفضيل أو يسعى إليه فى بيته.

ونروى الآن بعض القصص التى تبين مكانة الفضيل من هارون، ومسلك الفضيل بالنسبة للرشيد.

يقول سفيان بن عيينة:

ـ دعانا هارون الرشيد، فدخلنا عليه.. ودخل الفضيل آخرنا، مُقنِّعاً رأسه بردائه، وقال لى:

« يا سفيانُ، أيُّهُمْ أميرُ المؤمنين ؟ ».

فقلت : هذا.. وأومأتُ إلى الرشيد.

فقال له:

ـ **«يا حَسَنَ الوَجْه : أنتَ الذى أمْرُ هذه الأُمَّةِ فى يدكَ وعُنُقكَ.. لقد تقلَّدتَ أمراً عظيمًا ».**

فبكى الرشيد.. ثم أتى لكلٍّ منَّا بِبَدْرَةٍ [1].. فكلٌّ قَبِلَها إلا الفضيل ، فلاطفه الرشيد وألحَّ عليه، فاستعفاه منها..

وبعد الخروج قال له ابن عيينة:

هلاَّ أخذتها وصرفتها فى أبواب البِرِّ ؟..

قال ابن عيينة :

فأخذ بلحيتى، ثم قال:

---

(١) كيس فيه ألف ، أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

« يَا أبا مُحمَّد .. أنتَ فَقيهُ البَلَد ، وتَغْلطُ بمثْلِ هَذا الغَلَط ؟ لَوْ طَابتْ لأولئكَ لطابتْ لى » .

أما القصة المستفيضة التى حدثت للفضيل مع هارون الرشيد، والتى رواها ابن الجوزى، وروتها «الحلية»، ورواها الإمام الكبير محيى الدين بن عربى ، ورواها غير هؤلاء فهى كما يلى:

حدَّث الفضل بن الربيع قال:

« حَجَّ أمير المؤمنين ، فأتانى، فخرجت مسرعاً . . فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلتَ إلىَّ أتيتك.

فقال: وَيْحَكَ . . قَدْ حَاكَ فى نَفسى شىء، فَانظرْ لى رجلاً أسأله . .

فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة.

فقال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه، فقرعنا الباب، فقال : من ذا ؟

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلىَّ أتيتك.

فقال: خُذْ لما جئناك له ،رحمك الله . . فحادثه ساعة ،ثم قال له: عليك دَيْن ؟

فقال: نعم.

فقال: أبا عباس، اقْضِ دَيْنَه.

فلما خرجنا قال: ما أغْنَى عنى صاحِبُك شيئاً. انظر لى رجلاً أسأله.

قلت: ها هنا عبد الرزاق بن همام.

قال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه، فقرعنا الباب، فخرج مسرعاً، فقال: من هذا ؟

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فقال: يا أمير المؤمنين.. لو أرسلتَ إليَّ أتيتك.

فقال: خُذْ لما جئناك له.

فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دَيْن ؟

قال: نعم.

قال: أبا عباس.. اقْضِ دَيْنَه.

فلما خرجنا قال: ما أغْنَى عنى صَاحِبُك شيئًا.. انظرْ لى رجلاً أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل بن عياض.

قال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه.. فإذا هو قائم يصلِّى، يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب.. فقال: **من هذا ؟**

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فقال: **«ما لى ولأمير المؤمنين ؟»** .

فقلت: سبحان الله.. أما عليك طاعة ؟

فقال: **«أليس قد روى عن النبى ﷺ ، أنه قال:**

«لَيْسَ لِلمُؤمنِ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» .

obeikandl.com

ثم نزل، ففتح الباب. . ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السِّراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت.

فدخلنا، فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كَفُّ هارون ـ قبلى ـ إليه.

فقال: « **يا لها من كفٍّ.. ما ألْيَنَها إنْ نَجَتْ غداً من عذاب الله ـ عز وجل** ».

فقلت فى نفسى: ليكلمنَّه الليلة بكلام من قلب تقىٍّ.

فقال له: خُذْ لما جئناك له، رحمك الله.

فقال:

« **إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حَيْوَة فقال لهم: «إنى قد ابتُليتُ بهذا البلاء، فأشيروا علىَّ»..فَعَدَّ الخلافةَ بلاءً، وعَدَدتَها أنت وأصحابك نعمة.**

فقال له سالم بن عبد الله:

« **إن أردتَ النجاةَ من عذابِ الله، فَصُمِ الدنيا، وليكن إفطارُك منها الموت».**

وقال له محمد بن كعب:

«إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله، فليكنْ كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً.. فوقِّرْ أباك، وأكرمْ أخاك، وتَحنَّنْ على ولدك».

وقال له رجاء بن حيوة:

« إن أردتَ النجاةَ غداً من عذاب الله ، فأحبَّ للمسلمين ما تُحبُّ لنفسكَ ، واكرهْ لهم ما تكره لنفسكَ، ثم مُتْ إذا شئتَ ».

وإنى أقول لك:

« إنى أخافُ عليكَ أشدَّ الخوف يوماً تزلُّ فيه الأقدام .. فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هذا ؟ أو من يشير عليك بمثل هذا ؟ ».

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا حتى غُشِىَ عليه.

فقلت له: ارْفُقْ بأمير المؤمنين..

فقال: «يا بن الربيع .. تقتلهُ أنت وأصحابُك، وأرفقُ به أنا ؟».

ثم أفاق الرشيد، فقال له: زِدْنى، رحمك الله.

فقال:

«يا أميرَ المؤمنين : بَلَغَنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكى إليه، فكتب إليه عمر:

« يا أخى .. أذكِّرك طولَ سَهَر أهْلِ النار، مع خُلود الأبد.. وإياك أن ينصرفَ بكَ مِنْ عندِ الله، فيكونَ آخرَ العَهْد، وانقطاعَ الرَّجَاء ».

قال:

« فلمَّا قرأ الكتاب طَوَى البلاد ، حتى قَدِم على عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أَقْدَمَك ؟ قال: خلعتَ قلبى بكتابك،لا أعودُ إلى ولاية ، حتى أَلْقَى الله عز وجل ».

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً ، ثم قال له:

زِدْنى، رحمك الله..

فقال:

« **يا أميرَ المؤمنين !.. إنَّ العَبَّاسَ عَمَّ المصطفى ﷺ، جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله: أَمِّرْنِى على إمارة . فقال له النبى ﷺ :**

« **إنَّ الإمَارةَ حَسْرةٌ ونَدَامَةٌ يومَ القِيَامة ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تكون أميراً فافعلْ** ».

فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال له: زِدْنى، رحمك الله.

قال:

« **يا حَسَنَ الوَجْه، أنتَ الذى يَسألكَ الله ـ عز وجل ـ عن هذا الخَلْق يوم القيامة، فإن استطعتَ أن تقى هذا الوجه من النار، فافعلْ .. وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غشٌّ لأحدٍ مِنْ رَعِيَّتك، فإن النبى ﷺ قال:**

« **مَنْ أصبحَ لهم غَاشّاً لم يَرِحْ رائحةَ الجنَّة** ».

فبكى هارون، وقال له : عليكَ دَيْن ؟..

قال:

«**نعم ، دَيْنٌ لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن سألنى، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم أُلهم حُجَّتى**».

قال: إنما أَعْنِى من دَين العباد.

قال:

«إن ربى لم يأمرنى بهذا، إنما أَمَرَنى أن أُصَدِّقَ وَعْدَهُ، وأطيعَ أَمْرَهُ، فقال ـ عز وجل ـ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [1]».

فقال له: هذه ألف دينار.. خُذها فأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادتك.

فقال:

«سبحان الله! أنا أدلُّكَ على طريق النَّجَاة، وأنت تكافئنى بمثل هذا؟ سلَّمكَ اللهُ، ووفَّقكَ».

ثم صمتَ، فلم يكلِّمنا.. فخرجنا من عنده.. فلما صرنا على الباب، قال هارون:

إذا دللتنى على رجل، فدلَّنى على مثل هذا.. هذا سيِّد المسلمين.

فدخلت امرأةٌ من نسائه، فقالت:

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

« يا هذا . . قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلتَ هذا المال، فتفرَّجنا به ؟ ».

فقال لها:

«مَثلى ومَثلكُم ، كمثلِ قومٍ كان لهم بَعيرٌ يأكلون من كَسْبه ، فلما كبر نَحروه ، فأكلوا لحمه ».

فلما سمع هارون هذا الكلام قال:

ندخل، فعسى أن يقبل المال. . فلما علم الفضيل ، خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة . . فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلِّمه فلا يُجيبه . . فَبَيْنَا نحن كذلك، إذ خرجت جارية سوداء فقالت:

«يا هذا : قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة، فانصرف، رحمك الله ». . فانصرفنا ».

ولا تنتهى قصص الفضيل مع هارون الرشيد عند هذا الحد ، فها هى ذى قصة أخرى:

يروى يحيى بن يوسف، أن الفضيل بن عياض لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال: « **أيكم هو؟**» . . فأشاروا إلى أمير المؤمنين .

فقال:

« أنت هو، يا حَسَنَ الوجه ؟ لقد ولِّيتَ أمراً عظيماً، إنى ما رأيتُ

أحدًا هو أحسن وجهًا منك ، فإنْ قدرتَ أنْ لا تسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعلْ».

فقال له: عِظْنِى.

فقال:

«بماذا أعظُك ؟.. هذا كتاب الله تعالى بين الدَّفَّتين، انظرْ ماذا عَمِلَ بمن أطاعه، وماذا عَمِلَ بمن عَصَاه».

وقال :

«إنى رأيتُ الناسَ يغوصون على النار غَوْصاً شديداً، ويطلبونها طلباً حثيثاً.. أمَا ـ والله ـ لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لَنالُوها».

فقال الرشيد: عُدْ إلىَّ.

فقال:

«لو لم تبعثْ إلىَّ لم آتِكَ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ منِّى، عدتُ إليك ».

والعجيب فى صلة الفضيل بهارون الرشيد هو عاطفة الفضيل بالنسبة للرشيد، لقد كانت عاطفة معقدة شديدة التعقيد.. إنها من ألغاز النفس الإنسانية، التى تتكشَّف عن ألغاز، كلما سَبَرَ الإنسان بعض أغوارها.. ولقد أدهشتْ هذه العاطفة الفضيل نفسه، وتعجَّب منها.

وهذا الجانب يرويه محمد بن أبى عثمان، فيقول:

سمعت الفضيل بن عياض يقول:

«ما علَى ظَهْرِ الأرض أَبْغضُ إلىَّ من هارون، ولا أحد أحبّ إلىَّ بقاءً منه. لو قِيلَ: انتقصْ مِنْ عُمرك، ويُزاد فى عمره لفعلتُ. ولو خُيِّرتُ بين موته أو موت هذا ـ يريد ابنه أبا عبيدة ـ وإنى لأحبه ـ يعنى أبا عبيدة ـ قال: وأحبُّه لأنه جاءنى على الكِبَر ـ لاخترتُ موتَ هذا. فسبحان الله الذى جمع بين هاتين الخصلتين فى قلبى».

قال محمد: يريد لما يحدث بعد هارون من البلاء».

والفضيل ـ إنما يحرص على حياة هارون، رغم بغضه له؛ لأنه كان يرى فيه ـ رغم ما يأخذه عليه ـ حزماً فى الإدارة، وحسن تصرف فى شئون الناس، واحترامًا للعلماء، وتقبُّلاً للوعظ والنصح منهم.. وفى ذلك مصلحة الرعية.

ومصلحة الرعية ـ عند الفضيل ـ أهم من مصلحته الشخصية، وفى سبيل هذه المصلحة، واستمرار بقائها، لا يضن الفضيل بأن ينتقص من عمره، أو أن يموت ابنه ـ الذى يحبه ـ فداء لهارون.

***

ولم ينس الفضيل أن يروى عدة أحاديث شريفة فى شأن أصحاب الحكم موجِّهة ومرشدة، منها ما رواه ـ بسنده ـ عن بكير الجريرى ونفر من الأنصار، قالوا:

أقبل رسول الله ﷺ ، فأقبل كل رجل منَّا يُوسع إلى جنبه رجاءَ أن يجلس إليه، حتى قام على الباب ، وأخذ بعضادتيه، فقال:

« الأئمَّةُ منْ قُرَيش ، ولِى عليكُم حَقٌّ عظيمٌ ، ولهمْ مثلُ ذلكَ ما فَعلوا ثلاثًا :

- إذا استُرحموا رَحموا.

- وإذا حكموا عَدَلوا.

- وإذا عَاهَدوا وَفوا.

فمَنْ لَمْ يفعلْ ذلكَ منهم ؛فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين» .

وهذا الحديث الشريف واضح فى واجب الرؤساء على وجه العموم.

وحديث آخر يبين واجب الحكام أيضاً:

روى الفضيل ـ بسنده ـ أن معاوية ضرب على الناس بعثاً فخرجوا، فرجع أبو الدحداح، فقال له معاوية:

ألم تكن خرجت مع الناس ؟

قال: بلى، ولكن سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً فأحببتُ أن أضَعَهُ عندَكَ مخَافةَ أنْ لا تلقانى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يا أيُّهَا النَّاسُ مَنْ ولى منكُم عَملاً فحجبَ بابه عن ذى حاجة

للمسلمين ، حَجَبَهُ الله أن يَلِجَ بابَ الجنةِ ، ومَنْ كانتِ الدنيا هِمَّتَهُ حَرَّمَ اللهُ عليه جُوارى ».

وهكذا كان الفضيل ـ رحمه الله ـ يحاول دائماً أن يوجِّه الحكام إلى الطريق المستقيم سواء أكان ذلك بسلوكه، أم بقوله، ونصائحه، ورواياته عن رسول الله ﷺ .

وموقف الفضيل من الحكام وذوى السلطان ، موقفه الذى يعتز فيه بالله ورسوله، موقفه الذى يتمثل فيه الإيمان الصادق القوى، يتمثل فيما ذكره صاحب كتاب « تهذيب الأسماء» من أنه قيل للفضيل:

ـ لم لا تحدِّث جعفر بن يحيى ؟

قال:

« إنى أُجِلُّ حديثَ رسول الله ﷺ أن أحدِّث به جعفر بن يحيى».

ولم ينس الفضيل أن يوجِّه النصح باستمرار إلى العلماء حتى لا تذل نفوسهم لذى السلطان ، ومن أمثلة ذلك ما قاله لسفيان بن عيينة . .

لقد جلس سفيان بن عيينة ـ وهو قمة من قمم العلم الإسلامى ـ إلى الفضيل فقال له الفضيل:

« كُنتمْ معاشرَ العلماء سُرجًا للبلاد يُستضاءُ بكم فصرتُم ظُلمةً،

وكُنتم نجومًا يُهتدَى بكم فصرتُم حيرةً . أمَا يَستحى أحدُكم من الله إذا أتَى إلى هؤلاءِ الأمراءِ وأخذَ مِنْ مالهم وهو لا يعلَمُ من أين أخذُوه ؟ .. ثم يسندُ بعدَ ذلكَ ظهرَه إلى مِحْرابٍ ويقول : حَدَّثنى فلانٌ عن فلان » .

ـ فطأطأ سفيان رأسه وقال:

«نستغفرُ الله، ونتوبُ إليه » . .

***